

خواطر

في الماضي والحال والمستقبل

مما يتعمده بعض الناس وقد يضرهم ولا يفيدهم أنهم يقضون معظم ساعات يومهم إما في التأسف على ما فاتهم امس وإما في الاهتمام بما يعملونه غداً . والخواطر المدونة في هذه المقالة هي خلاصة ما طائعه كاتبها لغيره من الباحثين في هذا الموضوع وما أملاه عليه اختبارهُ الطويل . وهو يحرص على القراءة لتحصيلها وابداء رأيهم فيها ترحلاً الى الحقيقة التي ينشدها كل باحث عاقل

الحال حقيقة بين خيالين

لا يخفى ان هذه الكلمات الثلث — الماضي والحال والمستقبل — كثيرة الشيوخ في الالسنه ولا سيما في تعريف الوقت وتحديد اقسام الزمن . فهي والحال هذه معلومة غير مجهولة حتى عند عامة القراء . ومع ذلك نرى بعد البحث الدقيق والتأمل العميق ان الماضي والمستقبل هما في الحقيقة كالقول والعقده أي اسمين لا معنى لهما . فلا معنى للماضي الذي زال واندر ولم يبق أمين وجوده من اثر وكذلك لا معنى للمستقبل غير المعبود لانه باق في حيز العدم ولم يظهر بعد في الوجود . وهما يكس لهما كيهاسن الاثر في علم الحقيقة الخيالي فهو مستقر كله في الحال أي الوقت الذي نحن فيه . وما اصدق قول ابي العتاهية

« إِنَّمَا أَنْتَ طَوْقٌ عَمْرُكُ مَا عَمَّرَ رَمْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا »

وقد اخذه ابو اسحق ابرهيم الغزي وزاده تفصيلاً ونسباً فقال — :

« ماضى فات والموت مثل غيب . ولك الساعة التي انت فيها »

ومع ما يراد بوصف الحياة بالزوال أو بقصر المدة فالحال يصح ان يطلق ولو من باب التعمير على الوقت المستمر المشدود . لان الوقت الذي نعيشه بالمستقبل ليس شيئاً الا بعد ما يصير الى الحال . وليس في الامكان تصور وقت ان لم يوجد الحال . ولا يتعرض كاتب هذه السطور لرأي الناس في الماضي والمستقبل ولكنه يروم تقرير بعض الحقائق التي يربو ان تعين على اصلاح خطئ جرينا عليه ونحن نعده صواباً

الاستغنائف بالحال منشأ الازجاد

عادتنا ان نستخف بالحال ولا نؤيه حقه من العناية والاهتمام لأننا نتصوره فيق من

الحال قصير الأمد ونهزم ان لكل من الماضي والمستقبل غابة لا تدرك وسعة لا تحده .
 فيقول كل منا في نفسه : « ماذا بضمري اذا فعلت هذا او ذاك الآن او ان لم افعل شيئاً
 على الاطلاق ؟ لان الآن عبارة عن وقت اقصر من ساعة السرور وافيق من صدر
 العاشق المجهور ، وهذا الاستخفاف بالخال والنحو في بخش تيمنه ما مصدر كل ارجاء وتأخير
 يقول المرجح : - « سأفعل هذا الامر ولكن ليس الآن بل غداً » وبني انه عندما
 يأتي الغد يصبح الآن مثل اليوم ولنه سيقول فيه ما قاله اليوم

فارجاء العمل اياً كان هو تأخيرها الى الغد . وسواء كانت فترة التأخير ساعات ام
 كانت شهوراً وسنين فأصل العادة واحد . وعلوم ان الحال ليس نسمة ولا فضاء بل مجرد
 نقطة من الوقت . ولكنه مع ذلك هو الوقت كله فهو اشبه برأس قلم في يد كاتب او
 مصور يجري ويترك وراءه رسوماً وآثاراً . وهو نفسه نقطة محاطة بفضاء غير محدود
 نسيم الأبدية

والمتنبل بما فيه من خير وشر محبوب عنا . وعلما محصور ضمن حدود الحال مع ما
 فيه من انمض والاجهال . ومن يحاول النظر الى المتنبل فالمرجح انه لا يرى المتنبل
 الحقيقي بل يعاين المتنبل المنسوج على منوال الوهم والتخيل
 نحن والمتنبل

يزعم بعض الباحثين في هذا الموضوع ان الانسان يستطيع ان يحتم بصير امور
 بما يتفهم لها في الحال من الابهة والاستعداد . ولكننا نرى بالاختبار ان سيرنا في هذه
 الحياة يشبه في بعض وجوهه سير القواطر في سلك الحديد . اي اننا في كل حين على رغم
 الحذر والاحتياط - معرضون لحوادث فجائية تنقض علينا من خزانة الاقدار فتعزل
 ساعينا وتحول سيرنا الى جهة لا نستطيع الانباء بها اكثر مما تستطبع الفاضلة . اذن نحن
 من هذا القبيل سيرون لا محمرون . وتأهنا للثقل يسوغ الحكم على مصير امورنا فيه
 من باب الاحتمال والترجيح لا من باب الحتم والجزم واذا دعا اهل مريض طبيباً لمعالجته
 جاز عد الشفاء محتملاً او مرجحاً ولم يميز القطع به . اي انه لا يصح الاستدلال بالعلاج
 على وقوع الشفاء قطعاً

فتعليل النفس بتأكيد الحصول في المتنبل على كل ما نتمند له في الحال لا يتبر
 من التعرض لتجرع مرارة الحمية . على ان هذه المرارة مما تشده تغل اقل من مرارة الندامة
 التي تعقب الاجهال . ونحن يجب امل اهل المريض بشفاء الطيب له فهو عندما يصير خطباً

من تجرع غصص الندامة على اهل امر مريضهم وعدم دعوة طبيب لمعالجتهم
فانأهب للمستقبل واجب لكي نأمن الندم بشرط ان نسير في توقع حسن المآل على
قدم الاعتدال حتى لا نستهدف لعثرات الآمال
« كل ما ترتجبه سهل ولكن عثرات الآمال ليست سهلة »
كُمُونُ القوي الطبيعية

وهذا التأهب للمستقبل يجري في الغالب على وجع مري متور عن عيون الناظرين
لان طبيعة كل انسان بالغة في الغموض والخفاء حدًا يتعذر قياس سمته وسر غوروه .
فكم من رجل بعده الناس ضيق العقل ضعيف الفكر متخيف الرأي وهو بالحقيقة خلاف
ذلك . وهذا هو السبب الخفي لظهور عظماء الرجال في أبنان المحن والشدائد على غير توقع
ولا انتظار . فقد اشتداد وحياة الكوارث الوطنية واستحكام حلقات الازمات الشعبية
برز الى ساحة الجهاد رجال لم يؤبه لهم من قبل لملولهم وضعفهم ويستخفون ما كان مذخوراً
فيهم من قوى الطبيعة ويجوزون شهرة لا يحول لونها ولا يزول ظلها مدى الدهر كاسكندر
البيكودي ونبليون ووشنطن ومحمد علي وغيرهم . وظهور عظماء الرجال على هذا الوجه حقيقة
لا ريب فيها وهي اكبر محذور لنا من التجميل في تحديد مستقبل الانسان بناء على ما يظهر
منه الأقباله علاقة بالتفوق او التفاضل الفني . فمن لا يستطيع الضرب بالعود وهو ابن
ثلاثين سنة لا يخطئ اذا حكنا عليه بأنه لن ينظم في سلك نوابغ العوادين . اما عظماء
الرجال الذين اشتهروا في التاريخ بالعلم والفلسفة والاكتشف والاختراع وجمع المال وبلوغ
اسمي مراتب الحمد والشرف وفتح البلدان وتدويج الممالك فقلنا ظهر على واحد منهم في حدائته
ما انبأنا بشدة نبوغه وعظمته مصيرهم .

ولكن قصار النظر الماطلين من حلية التأمل والتفكير يدهشون عند ما يطالعون
سير العظماء ويرون فيها ما يخالف عقولهم . يعجبون اشد العجب من رؤية انسان يسعى
الى غرض ثم يناله بلا اقل تدرّب ولا استعداد . ولو كان الامر كما خيل اليهم لحق
لهم ان يدهشوا . ولكنه لم يكن كذلك ولن يمكن ان يكون . فالتدرّب والاستعداد كانا
كاشهين فيه بصورة خفية ولولاهما لم يشطع الحصول على شيء مما اراد
ولقد قضت الطبيعة بمعكم تدبيرها ان يكون الخال غالي القيمة عظيم الشأن حتى اتنا
لتعجب بكفاية الذين اذا استجزناهم ما وعدونا قضاءه لبرا الطلب الآن ولم يطلونا الى
غد وما بعده . ومن اكبر منافع التمدن واعظم بركاته انه يبرئنا كثيراً من قضاء

حاجتنا الآن بلا ارجاء ولا ابطاء . فالتلفزيون والتلفون معدان نقش رسالتك والباخرة والسيارة والطيارة مبياتاً لحلمنا وانزركم بأبي مجهز للإتارة والمنطشات والآلات الاصفاء عتيده لاختداد تقاس النار . واخبار الناس كافة يزيد عليهم يوماً بعد يوم بشدة احمية الحال . وليس المستحيل عندهم الآن زمتنا بتوقعون حافله نحن الحال في وقتنا المعين أي عند ما يصير اليوم أمس ويتحول الغد الى اليوم ويبعث ماء بعد غد غداً وهي جراً

حنات الماضي وسيناته

ولماضي عند كل امه حنات كثيرة يذكرها له بالشكر . في عصور مختلفة منه وعلى درجات متفاوتة وضع الناس اساس ما نشاهد في الحال من التقدم العلمي والادبي والمادي . ولكن هذه الحنات لم تكن من اشياء انقضى الغرض منها ولم يبق لاهل هذا الزمن اقل احتياج اليها فاخذوا يتضايقون من وجودها ويمدونها شوائب سينات تكدر صفاء تلك الحنات . وآثار الماضي كثيرة في الغرب ولكنها في الشرق اكثر . وليس هنا محل استيفاء الكلام عليها

على انه مما نوافر حنات الماضي عند الذين لا يزالون مشغوفين به وتكثر سينات الحال عند الناقين منه والطاعنين فيه فمن الخفق اننا نعيش الآن - كما قال ربنات في احدي خطبه - في اسعد العصور المعروفة في تاريخ البشر ولنا ان نتوقع لدرتنا عصراً خيراً منه وافضل . ومن يتم نظره في اتجاه الامور على وجه الاجمال من غير ان يعنى بالتفاصيل لا يداخله ريب في انها مطردة السير في طريق الاصلاح والتقنين - ومن رأي الفلاسفة المتعمقين في درس النظام الشمسي ان مصير الجنس البشري اخيراً الى الزوال . ولكن هذا المصير بعيد جداً . فلندع الالهائم بوجانباً ونتوقع بروح الامل والرجاء حصول اشياء كثيرة نافعة ومنيرة لبني البشر . فترجو كلنا من سميم قلوبنا ابطال الحروب وان لم يتم ذلك في ايامنا ونود انفراج الازمات الاقتصادية المنيخة بكلاكلها على صدور الناس وتتمنى ان يزيد انتشار روح الاخاء الصام والسامع اللديني

الأم الجدي والعقلي

ولكن شيئاً واحداً لا سبيل انى رجاء حصوله وهو انتطاع الأم الجدي . على ان احد أطباء النرس يقول : - « ينهي الأم بزوانه » . فكأننا نعلم ما الأم ولا نجهل صعوبة تحمله في أثناء حدوثه . ولكن بعد انتشاع سمحاته ونقلص ظننا لا يبقى له فينا سوى الشعور بلذة التخص منه . وان لم يترك في الجسم أثراً للدثور والتلف عددناه كأنه

لم يكن . وعند ما نشاهد جمعاً صغيراً من الناس في محفل لا يحظر ببالنا ان تصور مقدار الألم الشديد الذي كابدهته أمهاتهم حيناً ولدتهم . وحيناً نمرُّ بأحدى المقابر لا ننكر في آلام النزع المبرحة التي عاناها اولئك الزاقدون في تلك الرموس . واذا راجعنا الآن حوادث الحرب الكبرى التي أحصي عدد قتلاها وجرحاها بالملايين لا نذكر غصص الألم والعذاب التي تجرَّعها اولئك المنكودو الحظ وهم يجوزون بنفوسهم بل نتيجة افكارنا الى تصور شجاعتهم والإعجاب باستبسالهم

اما توقع الألم في المستقبل فيختلف كل الاختلاف عن الشعور بألم الماضي . واذا كان من الصواب ان ننسى الألم الماضي فمن الصواب ايضاً ان نبتهم بالألم المقبل فثافته ولكن لا نجبن في تداركه . ولهذا الاعتبار نرى ذوي الثقة والمروءة (١) يتماشون تعريض احد من الناس والحيوانات لمعاناة شيء من العذاب ولا يجوزون غمار حرب يستطيعون تلافي شربها . ويسرهم اجتنابها أكثر مما يسرهم نيل النصر فيها

واذا سهل علينا نسيان آلام الجسد في الماضي فلن يسهل نسيان آلام النفس . لأن لها خاصة تجدد عجيبة تمكن رباحها من الميوب بعد الركد وتارها من الشوب بعد الخمود . وبالجد تستطيع إضعافها وتخفيفها . ان جراح الجسد مسهلة الضمد والشفاء . وأما جراح النفس فمعرضة كل حين للانتقاض . وقد تخمد نار البركان فيظل أباناً واسابع منقطعاً عن قذف الحمم من جوفه ولكن بركان باضي الانسان يظل طول حياته في ثوران وهياج كالبحر المتلاطم الامواج . والناس ما داموا احياء لا ينسون ما عرض لهم أيام شبابه من بواعث الحزن والأسف ودواعي الغيظ والحقد ولا ما ارتكبه فيها من الخطأ والخطل . فقه يتسرع الانسان الى النطق بما يغاير الرقة واللفظ ويتأني الحشمة والادب ثم يندم عليه ولكن صورته تظل ماثلة في ذهنه الى آخر حياته

اذن ما الحياة ؟

فالحياة هي الحال الدائم . وبعبارة أخرى هي اليوم لا الامس ولا الغد . واذا ظهر لنا ان بعض ساعاتها او أيامها اقل قيمة من بقية اوقاتها ففئة ذلك التفاوت في نشاط القوى العقلية وعدم انتظام ستوح الفرص . ومن طبعتنا الاختلاف بالحال والغض من قيمته . وكثيراً ما يخصص الشبان قيمة الحال لانهم لا يستطيعون ان يحولوه من نورهم الى ذهب . ولكن أليس في استطاعتهم ان يحولوه الى ما هو اثنان من الفضة والذهب الى معرفة

(١) المؤسدة ان ينزل الانسان غيره . منزلة نفسه في النفع له والدفع عنه

واختيار وفطنة وذكاء؟ وإذا ازدري البره قية الحان في عصر الكهولة فذلك فخر او
تراخ يطرأ على نظام القوى العقلية . وفي اواخر العقد الخامس يبدأ الانسان يشعر بمشقة
ضبط هذه القوى وتبديدها بما يضمن حفظ نشاطها ومضائها ويحول دون خوارها وكلاهما .
وبعد ما يمتد حبل الاجل وتطول شقة العمر يشتد ميلنا الى فسحة الوقت بين العمل المنطرد
المعتاد والراحة . فما من سبيل اني مقاومة هذا الميل وكبح جماحه ؟ أليس في الإمكان
دفع عوادي الضعف عن الحياة في طور ابي الكهولة والشيوخة حتى يظل طوال الأعمار
محفظين بجانب كبير من كفاية القوى العقلية ونشاطها؟ والجواب ان ذلك ممكن والامثلة
عليه كثيرة . ومن اصدق الادلة على تحسن حالة البشر في هذا العصر ان حياة الناس
على وجه الاجمال اطول فيده منها في العصور السالفة . وان كثيرين من الشيوخ في هذه
الايام يتلون صحة جسدية وقوى عقلية طائفة باثر الجودة والمرونة والنشاط

والخلاصة

والخلاصة ما يرجوه كاتب هذه الخواطر ان يجد فيها القراء عموماً والشبان منهم
خصوصاً ما يتلأ اهتمامهم بالماضي والمستقبل ويزيد عنايتهم بالحال حتى يحرصوا على قضاء
كل دقيقة من يومهم في ما يكتسبهم صحة وقوة ويزيدهم عفاً واختياراً بثقافات عندهم
ويجتهدون بان نفوسهم ويعيدانهم لخدمة امتهم ووطنهم بما لا يزيد عليهم من الاهلية والصلاحية .
وليتوا ان كل ساعة يقضيها الشبان في متلفات الابدان وبفعدات النفوس والاذهان
تُعرّضهم فيما بعد لجهد البلاء^(١) وتفادهم امواتاً في صور أحياء

وإذا استعادوا في يومهم ذكر ما فرطوه اسس واستوجب بدمهم على ما فات فلا يقضوا
الوقت بالاستكانة للحرز والاسف والعزم الكاذب على تلافي اسباب الخطأ والخطية في
في المستقبل بل ليعزموا الآن — في الحال — في اليوم نفسه والساعة عينها — ليعزموا من
فورهم على قطع تلك الاسباب ولا يرجعوا شيئاً الى الغد ليعملوا اليوم كل ما يسره ذكره
غداً وليرجعوا في الحال ما يرجع لديهم إمكان التمتع بمحصاد نتائجهم الحسنة في المستقبل .
فيرشعوا كثرهم الحياة صافية من اكدار الخيبة والندم ويتملأوا صحة جسد وعقل تظل
ذيرها وحواشيها ضافية عليهم حتى في ايام الكهولة والحرم

اسعد تحليل داغر

القاهرة

(١) جهد البلاء حالة يخشاها الناس على الخيال . وفي الحديث : — «كان النبي يمدق الله
من جهد البلاء ودرك السهائم وشهامة الاعداء»